كتابات جمال الغيطاني التناصية بعيون مغربية

إبراهيم الحجري*

■ للسفر نكهته ومتاهاته وتعرجاته المحفوفة بالمخاطر، ولكن حينما يكون هذا السفر متخيلا أو هو شبيه بذلك، تصبح له نكهة مضاعفة ورغائب شتى، وإذ تجتلب بالذات دماء التحدي وتغلي شهوات ركوب المخاطر هذه، تعصف في أعماق النفس أنواء التحدي وتشتبك في وصل عميق مع حب البحث والتقصي وارتياد فضاءات أوسع.

ذاك ما كان الباحث والكاتب الحبيب الدائم ربي يفكر فيه، بوعي مضاعف (وعي المبدع ووعي الباحث)، وذاك ما كان يؤرقه وهو على مشارف الخوض في هذه الرحلة السردية المشرقية العصية، وقد كان مزودا إلى جانب فورته الإبداعية وخبرته في الكتابة، بشغف الباحث المتعطش لمزيد من المغامرات الكشفية الأركيولوجية في مفازات الحكي العربي، وبخاصة منه الروائي، وبتراكم قرائي في أسفار النقد الغربي ونظرياته، وهو إذ يصنع تجربته بتفرد ومقاسات خاصة ويشيد تصاميم إبداع سروده ومحكياته القصصية والروائية بطرق خاصة ومغايرة، فإنه كذلك يستهويه التعرف على تجارب الآخرين في الكتابة والغوص في التجارب الإنسانية الفنية، على اختلاف تجلياتها وتمظهراتها، خاصة حينما تكون مترعة بالشاذ عن القواعد والمنزاح عن الخطوط الحمراء المتداولة.

وبالرغم أننا نعرف قيمة المغامرة في البحث والتقصي لدى الحبيب الدائم ربي (الكاتب)، إلا أننا وجدناه هنا حذراً محتاطا متريثا شديد الحرص، ولعمري إن ذلك أمر يقتضيه منطق البحث العلمي؛ والتزام تستوجبه قواعد استجلاء الحقائق المضبوطة. وقد نجح الحبيب، إلى حد كبير، في الفصل، داخل الذات، بين الكاتب المبدع المغامر؛ المشرع أجنحته للأفضية القصية اللاثابتة، وبين الباحث (وليس الناقد لأن الناقد يكون سيد مسافاته يرسم شكل انعطافها كما يشاء) الذي يقتفي أثر الأعراف والأقانيم المدرسية، ويكيف، وفقها جهوده وحفرياته، دون أن يتجاوز التعليمات التي يفرضها أمر الإشراف. لذلك نجده، في مقدمته، حريصا على تحاشي المنزلقات والمهاوي السحيقة التي قد تؤدي إلى منزلقات وهفوات تخرج به عن سكة البحث العلمي.

وإذا كانت طبيعة البحث العلمي قد حرمت الرجل من اقتحام سفراته السندبادية، فإن اختيار الباحث، في حد ذاته، ينم عن احتفاء بالمغامرة، والدليل على ذلك هو سلكه لهذا الموضوع الشائك والعويص، والذي تتجلى متاعب خوضه على الأقل في موقعين:

– اتخاذه من موضوع التناص رهانا لبناء الأطروحة، وهو موضوع كما هو معروف ما يزال حديث العهد لم تُتَراكم فيه بعد الكثير من الدراسات والبحوث بما يكفي.

ـ تناوله لهذه الظاهرة من منظور شمولي، وداخل تجربة سردية عرفت بنهجها التجريبي المغرق بالفرادة والبحث عن الغريب والجديد والمغاير، تجربة تؤسس صوتها خارج المتعارف والمألوف؛ وبعيدا عن المتراكمات القرائية التي تحكم أفق القراءة لدى المتلقي العربي.

ومع ذلك خاض الباحث هذا التحدي وحشد كل قواه وشحذ كل إمكاناته وصقل مواهبه واستنفر كل طاقاته ليلم شتات المراجع والمصادر ويفتك بكل العوائق التي تحف مماشيه في هذه الرحلة القرائية.

وقد تناول الباحث هذا الموضوع المتشعب عبر مراحل، استفتحها بمدخل نظري، يوضح خطة العمل، ويضبط التصور النظري للمفاهيم المستعملة، ويبرم من خلاله تعاقده قرائيا مع المتلقي، سواء من خلال طرح الإشكاليات أو من خلال تقديم المتون المتناولة في الدراسة أو من خلال اقتراح الفرضيات المبحوث عن مدى تحققها انسجاما مع الطرح العلمي.بعد ذلك قسم مبحثه إلى أربعة أبواب كبرى، كل منها ينقسم إلى فصول، وكل فصل يتوزع عبر محاور.

ـ الباب الأول، وقد قسمه إلى فصلين، الفصل الأول ويفصل فيه الباحث القول في تحديد المفاهيم واستقصاء تطورها، ومن هذه المفاهيم نذكر: الكتابة– النص– التناص– تناص الكتابة– كتابة التناص وغيرها، وقد حاول الحبيب الدائم ربي البحث عن العلائق والدلالات الناظمة لهذه المقولات والمفاهيم البؤرية التي سوف يشتغل كثيرا في مبحثه هذا، وهو لم يصرف جهده إلى تتبع تمظهراتها التاريخية تبعا لاستعمالاتها عند العرب والغرب فحسب بل كان الهم عنده هو محاولة تحويل هذه المفاهيم وتطويعها بما يتسع لشمل الإبداع العربي، باحثا عن إمكانيات تلبيسها بزي الطابع العربي بعيدا عن أي إسقاط، إن الغاية هنا ليست استعراض المعارف والمعلومات كما أوردها السابقون فالمعارف مع سطوة التكنولوجيا أصبحت مطروحة في الطريق بتعبير الجاحظ، لكن الغاية هو حصر المراد من هذه المفاهيم، وقد اقتضت الضرورة هذه الوقفة لكون هذه المقولات فضفاضة وتخترق حقولا متعددة وشاسعة. أما الفصل الثاني من هذا الفصل، فقد خصص للإمكانات التي أباحتها الدراسات المتناولة لمفهوم التناص منذ نشأتها إلى حدود أن اصبح مصطلحا،

ومن جملة المحاور المتناولة في هذا الباب نذكر: أسئلة التناص وحدوده– مصطلح التناص بين النشأة والامتداد– جدلية النص والواقع– العلائق التناصية (علاقة التحقق– علاقة التحويل– علاقة الخرق).

ويتناول الباب الثاني مسألة تجنيس النص المشتغل عليه، في الفصل الأول من حيث الشكل: (فن الخطط– فن الرواية–الرواية العربية– خطط الغيطاني). وفي الفصل الثاني تناول الباحث تجنيس الخطاب من حيث (التاريخ – الأسطورة ـ كائنات أخرى).

الباب الثالث يتعرض لآليات التناص في خطط الغيطاني من حيث آلياته: (اللغة ـ المتخيل الأسطوري)، هذا في الفصل الأول أما الفصل الثاني فيبحث في تذويت الملفوظات من خلال: (الذات المتكلمة]الضمائر ـ الأزمنة ـ المنظور السردي [وحوارية الذوات (المفردة القلقة ـ صخب الجمل).

الباب الرابع والأخير يتضمن هو الآخر فصلين، الفصل الأول يتطرق لمسألة التشخيص اللغوي من خلال محاور (الوجه والقناع ـ التهجين ـ محاكاة أساليب الغير ـ المعارضة الساخرة ـ المفارقة]مصادرة الواقع على الخطاب ـ مصادرة الخطاب على الواقع[، وأما الفصل الأخير الموسوم بـ «المرايا المتقابلة»، فقد خصص لمجموعة من القضايا نختزلها في: (الفضاء النصي أو الكتابة بواسطة العمارة ـ الانغلاق/ الانفتاح ـ التكرار ـ التجاوز ـ التشذير ـ تداخل الفضاءات ـ صورة نارسيس أو الأنا المضاعفة).

وختم الباحث الحبيب الدائم ربي رسالته الشيقة هذه باستشراف دلالي أو سؤال استباقي بحثا عن أفق دلالي وفني من خلال مغازلة هذا المتن الذي يندرج ضمن مشروع مفتوح؛ فتح الحبيب الدائم ربي ومن أتى بعده ومن سبقه في الزمان والمكان، لكنه أكيد لن يغلقه.

إن طبيعة الاشتغال في هذه الأطروحة تنم عن تأمل عميق في العمل المدروس وتمثل أعمق في سلطة المفاهيم الأدبية والنقدية المشتغل عليها هنا، حيث نلفي الباحث يقف على كل مفهوم استعاره من منظومة معينة سواء كانت من حقل الأدب أو خارجة عنه إلا وقف عنده وقفة نظرية ملية ومركزة، قبل أن يوظفه لخدمة مشروعه النقدي الأكاديمي.

ونشتم في هذا العمل رائحة الكاتب المتدبر للأمور الواعي بطقوس الكتابة وأقانيمها حيث تحبل اللغة في كثير من الأحيان بشعرية خلاقة وتراكيب تحفل بالمتعة في التعبير، وهذا العمل، بهذه الصورة لا يمكن أن يصدر إلا عن كاتب متمرس امتلك ناصية اللغة وخبر مسارب الكتابة وتجول كثيرا عبر باحاتها وعرصاتها واقتحم مجاهلها؛ ولا يمكن أن ترد سوى من لدن كاتب اسمه «الحبيب الدائم ربي". فالباحث تجنب في خطابه اللغوي الركاكات والأخلاط والهنات الكبرى التي تحفل بها الرسائل والأطاريح الجامعية، وتسلح إلى جوار المنطق العلمي الأكاديمي بروح المبدع المتفنن في انتقاء العبارات الأشد تأثيرا والأعمق بلاغة لينزاح بذلك عن الخطاب الجاف الذي تشي به الرسائل الأكاديمية بحجة معانقة الصرامة العلمية والمنهجية اللتين لا يخلو منهما هذا الكتاب الرائع.

لقد قام الحبيب بقراءة تفكيكية للمتن واشتغل بعمق على المضامين ليفرز الغائب فيها، خفيه وبارزه، كاشفا عن الدلالات والسياقات التي تؤطر اشتغال جمال الغيطاني على هذه النصوص الغائبة، متتبعا حضور نصوص ومقولات وكليشيهات أخرى في «الخطط» مبرزا الدلالات التي تنتظمها والوظائف التي تلعبها في شد لحمة النص وتشييد المعاني فيه، وخلق شعريته وتمفصل بناه ونواياه التواصلية مبديا قدرة قل نظيرها في تمثل مناهج الغرب الأدبية ومعرفة كيفية تطبيقها على متن عربي غريب عنها، وتكشف الأطروحة عن تمرس الباحث بكفاءات ومهارات عليا في التحليل والتأويل والقراءة والاكتشاف، إذ إنه استطاع تخريج نصوص وظفها الغيطاني في متنه بشكل محور ومتصرف فيه، مما أضحى معه أمر ضبطها شيئا من الصعوبة بمكان! وهذه المهارة تأتت للكاتب انطلاقا من حبه العميق للقراءة وحرص شديد على المطالعة باللغات الثلاث الفرنسية والإنجليزية والعربية.

عموما لقد أطلعتنا هذه التجربة في البحث على الوجه الآخر للحبيب الدائم ربي الذي عرفناه وجها مشعا في مجال الكتابة السردية بأنواعها، وكشفت لنا كم يختزله هذا الكائن الخجول من مهارات، حيث يجمع إلى جانب الكتابة الأدبية والنقدية اهتمامات في الترجمة والبيداغوجيا والتأطير! في وقت قلت فيه مثل هذه الموسوعية لدى كتابنا وباحثينا الذين قضت نقمة التخصص على الكثير من مهاراتهم، وحدت من آفاق تبحر العقل والذهن المغربيين في أمدائه الرحيبة التي اعتادها منذ القدم.

* كاتب من المغرب

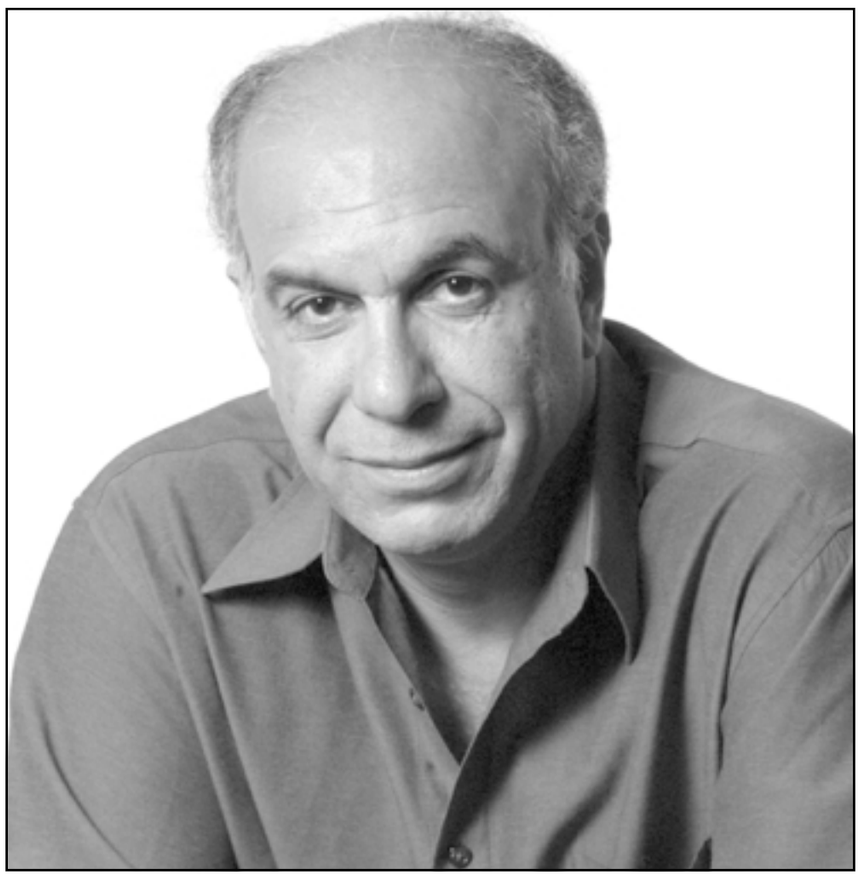

كمال سبتي (القدس العربي)

الشاعر العراقي المميز الذي وجد ميتا في شقته بعد خمسة ايام على وفاته:

صبراً قال كمال سبتي للطبائع الأربع!

لندن ـ «القدس العربي»

غيب الموت قبل ستة ايام الشاعر العراقي المعروف كمال سبتي، الذي وجد ميتا على كرسي في شقته بجنوب هولندا، بعد ان لم يتلق شقيقه الذي يقيم في امريكا اي اتصال منه، ولم يرد على اتصالات اخيه، وهو، كما يقول اصدقاء الشاعر في هولندا، امر نادر، اذ ان كمال كان يلازم شقته، تقريبا، طوال الوقت.

وقد وجدت الشرطة الهولندية، حسب الرواية نفسها، الشاعر العراقي ميتا على كرسي بعد ان داهمه نزيف قوي ومفاجئ في المعدة، ولم تصدر الشرطة حتى الان بيانا تفصيليا عن وفاة الشاعر العراقي الذي يبلغ الثانية والخمسين من العمر.

ولد كمال سبتي في مدينة الناصرية ـ جنوبي العراق عام 1954 والتحق بمعهد الفنون الجميلة في بغداد حيث درس الاخراج السينمائي ولكنه لم ينه دراسته اذ فصل من المعهد لاسباب سياسية، ثم سيق الى الخدمة العسكرية. وقد شكل الشاعر الراحل مع زاهر الجيزاني وخزعل الماجدي ورعد عبد القادر ابرز شعراء السبعينات في العراق حيث خاضوا سجلات طويلة في قضية الحداثة الشعرية ونأوا عن الاتجاهات السياسية التي كان حزب البعث الحاكم يحاول ارساءها في الحياة الثقافية العراقية، ولم يعرف عن الشاعر الراحل انخراطه في «شعر الحرب» الذي ساد بعد اندلاع الحرب العراقية الايرانية، كما انه لم يلتحق بأي اطار سياسي في الخارج وظل محافظا على استقلالية موقفه وكتب في الشأن العراقي موضوعات عديدة انطلاقا من وجهة نظر وطنية ترفض المحاصصة الطائفية مثلما رفضت الديكتاتورية من قبل.

ولاسباب لها علاقة بالتضييق السياسي غادر كمال سبتي العراق عام 1989 الى اسبانيا حيث درس في كلية الفلسفة والاداب – جامعة مدريد المستقلة، ثم غادر الى هولندا عام 1997 التي ظل يقيم فيها الى ان توفي قبل ستة ايام، وقد ذهب في زيارة واحدة الى العراق بعد سقوط النظام وكتب بعد عودته انطباعات متشائمة عن احوال البلاد في ظل الاحتلال الامريكي وسيادة الارهاب والمليشيات الدينية والتكفيرية على الشارع العراقي..

وبرحيل كمال سبتي تخسر الساحة الشعرية العربية واحدا من الشعراء الذين لم يركنوا الى المنجز وعملوا على تجديد السؤال الشعري وطرحه سواء من خلال اعمالهم الابداعية ام من خلال تنظيراتهم في قضية الشعر، وما الاشكال والموضوعات التي اشتغل عليها الشاعر الراحل الا دليلا على القلق الشعري الذي ظل يسكنه حتى اخر ايامه.

ففي عمله الاخير «صبرا قالت الطبائع الاربع» الصادر هذا العام عن دار «الجمل» في المانيا، عاد كمال سبتي الى القصيدة الموزونة التي كان هجرها الى قصيدة النثر فترة طويلة، ولكن ذلك لايعني عودة القصيدة عن فكرة الحداثة وسؤال التجديد حتى وهي تخوض في التراث وتقلبه تقليبا.

صدرت لكمال سبتي المجموعات الشعرية التالية:

ـ وردة البحر ـ بغداد، 1980

ـ ظل شيء ما ـ بغداد 1983

ـ حكيم بلا مدن ـ بغداد 1986

ـ متحف لبقايا العائلة ـ بغداد 1989

ـ آخر المدن المقدسة ـ بيروت 1993

ـ آخرون.. قبل هذا الوقت ـ دمشق 2002

ـ صبرا قالت الطبائع الاربع ـ المانيا 2006.

كتب كمال سبتي عددا من المقالات والتأملات في الحياة الثقافية والسياسية العراقية والعربية في منابر صحافية عربية مختلفة منها «القدس العربي»، كما كان يعكف على انهاء عمل يمزج بين السيرة الذاتية والشعر، نشر بعض فصوله في هذا المنبر، وكان اخرها في الرابع والعشرين من اذار (مارس) الماضي بعنوان «الشعر وحاسة معرفة الناس»، كما انه ارسل مقالا عن الشاعر السوري الراحل محمد الماغوط ولم يتسن لنا نشره، وها نحن نقوم بنشر تحية وداعية من شاعر راحل الى شاعر راحل. يذكر اخيرا ان الشاعر كان يعاني من متاعب صحية في السنين الاخيرة استلزمت بقاءه في المستشفى بعضا من الوقت.

قصص

تشاو

رشاد أبو شاور

■ يمكن القول أن تلك الفتاة قد أخذت قلبي وروحي معهاوهي تغادر المطار مع ذويها .

في الطائرة جلست بجواري، تناومت عند بدء الرحلة، وحين أفاقت ذهبت إلى الحمّام.

لمّا وزعت المضيفات علينا الطعام، أكلت قليلاً، وشربت قهوة ثمّ انهمكت في قراءة رواية (العيون الزرق) لتوني موريسون.

هي سوداء كحبّة قهوة محمّصة حتى اللون الذي يصفونه بالأبنوسي...

عيناها زرقاوان، وشعرها شديد السواد، ناعم غزير ينسدل على كتفيها العريضين، وظهرها.

سمّيتها بيني وبين نفسي (إبنة الغابة)، ثمّ وجدت أن التسمية قليلة، بل ساذجة، وتبخس جمالها قيمته، ثمّ قرّ قراري على تسميتها بـ(الأبنوسيّة الغامضة).

هذه الفتاة ـ لم أهتد لتقدير عمرها ـ ربّما في الثانية والعشرين، أو الرابعة والعشرين، ربّما، هي في كل حال سنوات و..عشرون لا أكثر.

كيف امتزجت قارات معاً في امرأة، في العينين، بشرة الجسد، الشعر، الغموض؟

تفطنت أنني رأيتها في فندق (هيلتون) أديس أبابا ترقص مع شاب أشقر طويل القامة يتكلّم معها بالإيطالية (أعرف كلمات طليانية تعلّمتها من كتاب «تعلّم الإيطالية بدون معلّم»، ذلك أنه من عادتي أن أقتني كتباً تعلّم اللغات في أسبوع، وبدون معلّم، كلّما تشرّدت مضطرّاً إلى بلد أجنبي).

سألتها وقد رفعت رأسها عن رواية توني موريسون:

ـ ألست أنت التي رأيتك في فندق هيلتون ترقصين رقصاً أخّاذاً؟

ابتسمت:

ـ أنا...

شفتاها رقيقتان، وأنفها دقيق، وهي تتنفّس بهدوء، ومنها كلّها تفوح رائحة عطرية حريفة لم أشمّها من قبل، رائحة تأخذني إلى الغابات، وقرع الطبول، رائحة توحي بأجساد حارة ترقص وسط نيران ليليّة، مزيج من همس زهور مجهولة وصيحات وحوش تنادي بعضها لتتزاوج...

ـ إلى أين وجهتك؟

ـ روما، فهناك عائلتي، أمي وأبي..وأنت؟

ـ وأنا إلى روما..سأذهب إلى (الكولسيوم) أريد أن أكتب شيئاً عن صيحات العبيد، وتفجعات المصارعين، ثمّ أستأنف رحلتي إلى مكان لا أعرفه...

ابتسامتها ضوء عاجي، ناصع، فرح خلاّب. أودّ لو أميل رأسي على كتفها، لكن...

عادت واستغرقت في القراءة، فتشاغلت بسرد حكاية لنفسي عن فتاة سمراء أبنوسيّة، شعرها ناعم، عيناها زرقاوان كبحر، تأخذ رأس شاّب مسافر في طائرة، يكره المطارات، يكتئب لمرأى رجال الشرطة، لا يفرح بالسفر..تفتح معطفها وتأخذ رأسه وتريحه برفق على صدرها، وتهبط به في بلد لا يطلب جواز سفر، ولا فيزا للإقامة...

دارت الطائرة في سماء مدينة روما، فأغلقت دفتي رواية توني موريسون، وسرّحت نظراتها عبر الكوّة الصغيرة متأملة معالم روما من الجو، بينما أنا أتلو (الفاتحة) وأبتهل إلى الله أن لا أتعرّض لمتاعب في المطار كوني عربيّاً بسحنة سمراء، أنا المتلهّف على زيارة روما لأوّل مرّة، والمغادر إلى تونس بعد أربعة أيّام لألتحق بأبناء جلدتي...

على يساري عجوز تتمتم بأدعية لا أتبيّنها، وإن كنت ألحظ حركة شفتيها المجعدتين، ولذا استنتجت أنها تتلو أدعية لتسلم الطائرة ويصل المسافرون ـ وأنا منهم ـ بالسلامة.

سألت الفتاة الأبنوسيّة:

ـ أينتظرك والداك في المطار؟

سؤال غير مبرّر، ولكن ماذا افعل وأنا أتحرّق لسماع صوتها. هزّت رأسها بأن (نعم) وبشيء من بهجة اللقاء القريب، وتمتمت بالإيطاليّة التي لا أعرف منها سوى جمل قليلة منها (تشاو) و(برونتو)، وشوية جمل عن الفندق، المطعم، وأسئلة مثل: كيف حالك، أريد أن أراك، متى نلتقي، أحبّك كثيراً...

سألتني:

ـ من أين أنت؟

بدون تفكير أجبتها:

ـ من الشرق الأوسط!

ضحكت لطرافة الجواب، ثمّ سألت:

ـ من الشرق الأوسط كلّه؟

ـ لا، من جزء منه، جزء أبحث عنه!

رمشت بأهدابها الطويلة الرشيقة، وكأنها تقول: لا أفهم...

رأيتها ترقص في (الهيلتون)، وتأملتها في قاعة الترانزيت، وابتهلت إلى الله أن لا يسافر معها ذلك الفتى الذي كان يضمها ويداعب شعرها، ويتشمم عنقها وهو يذوب فيها بينما هي تبتسم وتمسّد شعره، وتداعب عنقه بأصابعها الرشيقة.

ونحن نغادر المطار فتحت أذرع لاستقبالها: أم سمراء منحتها بعض ما تتمتع به، وأب أشقر أخذت منه لون عينيه الزرقاوين...

التفتت صوبي، حرّكت أصابعها الرشيقة كأنها تعزف على الهواء، وارتفع صوتها مبتهجاً بفرحة اللقاء بالأهل وروما:

ـ تشاو...

محمد الماغوط.. وداعاً!

كمال سبتي

■ شعرية متمردة بنكهة عذبة..جارحة وأليفة.

مزاجٌ قلقٌ يربّي قارئه على تعلق أسطوريٍّ بالحرية..هوَ الشاعر محمد الماغوط.

ليس ثمة شاعر عربي واحد لم يتربَّ على يديه.

سواء أكان من جيلنا أم من جيله هو نفسه.

كلنا تعلمنا منه.

وكلنا بكينا في شعره ومن أجل شعره.

***

أسطورة شعرية عربية في شكل سميناهُ قصيدةَ النثر.

لا همَّ له واضحاً «متكلفاً» باللغة.

لكنَّ بساطته العميقةَ فيها هي كلُّهم.

***

لم يجتمع أدباءُ عربٌ في جلسة وتحدثوا عن الظلام العربي إلاّ وانبثق صوته الشعري ناقداً مصيرنَا وقدرنا.

وحين ينبثق وهو غير موجود بيننا فيزيقياً فإنه ينبثق من ضمير أحدنا وعلى شفاه أحدنا.

***

واضح وضوح الألم العربي كله حين يكتب صرخته:

(أيها العرب

يا جبالاً من الطحين واللذة

يا حقولَ الرصاص الأعمى

تريدون قصيدةً عن فلسطين

عن القمح والدماء؟)

***

وقد لا أكون أحببتُ نصوصه المسرحية مثلما أحببت شعره.

لكن، مؤكد أن حسه النقديّ في شعره قد رحلَّه إلى كتابة المسرح.

وكم أحبَّ الناسُ مسرحهَ النقدي.

***

يحفظ الشعراء العراقيون الشبان عادةً قصيدته عن موت السياب:

(أيها التعس في حياته وموته

قبركَ البطيءُ كالسلحفاة

لن يبلغ الجنّةَ أبداً

الجنة للعدائين وراكبي الدراجات).

ولربما تذكَّرها الماغوط قبل موته.

لربما.

***

رحل محمد الماغوط.

الذي عاش معي كلَّ فتوتي في مدينة الناصرية.

بمجاميعه منفردةً وبأعماله الكاملة حين وصلت مكتباتنا النائية.

***

وداعاً.. محمد الماغوط.

وداعاً أيها المربّي.